الفصل السابع

محمد نبي الرحمة

تمهيـــد

شخصية محمد ﷺ تجسد كل القيم الأخلاقية الرفيعة: من عدل وبر وصدق وشجاعة وصبر، ورحمة وعفو، وكرم وإيثار، ووفاء، وأمانة وعفة وتواضع وحلم وتسامح، وقد وصفه ربه جل شأنه فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] وكل قيمة من هذه المنظومة الباهرة تستحق دراسة كاملة للوقوف على معناها واكتشاف أساسها وأبعاد تطبيقها وأهميتها الحياتية.

لكننا نركز على قيم الرحمة والتسامح في شخصيته، والحكمة في دعوته ﷺ، لدحض الافتراءات الموجهة إليه، غير أننا لا يمكن أن نَفْصِلَ هذه القيم عن بقية المنظومة الأخلاقية فصلاً تامًّا، لأنها تشبه الكائن العضوي الذي لا يعيش منه عضو معزولاً عن كيانه المترابط.

ولن نفهم الالتزام الصارم بهذه القيم إلا بالوقوف على أساسها الاعْتقادي، ولن ندرك قيمتها الحياتية إلا إذا تذكرنا الهوة السحيقة التي كان يتردى فيها الجاهليون العرب ومن جاورهم وخالطهم من اليهود والنصارى، فقد كانت العصبية الجاهلية، والعنصرية القبائلية في الجزيرة العربية، لا تكاد تعرف من التسامح والرحمة والحكمة إلاَّ أدنى درجاتها، وجاء محمد ﷺ لينتقل بالمجتمع الإنساني إلى آفاق رفيعة، فأخذ المسلم من المخالفين له في الدين وأعطاهم، دون حرج، ولم يعد يضيق بوجود المسيحي أو اليهودي إلى جانبه؛ ولم يعد ينكر عليه مزاياه الشخصية، بل شرع يصاهره ويؤاكله، بكل ما يقتضيه ذلك من المودة والتعاون والتسامح.

ولا تغيب الحكمة والموعظة الحسنة بطبيعة الحال عن أجواء التسامح هذه، فانقشعت سُحب الجفوة، وانتشرت العلاقات الودية، وما تعنيه من تراحم وتعاون بين أتباع الأديان السماوية من المسلمين واليهود والمسيحيين.

امتداح النبي ﷺ لملك الحبشة المسيحي

حين طال الأذى بالمسلمين في مكة على أيدي المشركين، حثهم النبي ﷺ على أن يهاجروا إلى الحبشة المسيحية، وامتدحها وقال: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فَرَجًا مما أنتم فيه"(١) فخرج ٨٣ رجلاً من المسلمين إلى الحبشة فراراً بدينهم، ولاحَقَتْهم قريش إلى هناك، فَأَرْسلوا وراءهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، ليحرِّضوا النجاشي ضدَّهم، لكن الملك المسيحي العادل واصل حمايته للمسلمين(٢).

وأرسل النبي ﷺ رسائل إلى ملوك عصره يدعوهم إلى الإسلام، منهم ثلاثة ملوك مسيحيون، هم: "قيصر الروم" و"النجاشي" و"المقوقس" عظيم القبط في مصر(٣) ومما يلفت النظر هنا رد "المقوقس" الذي كان وَدُودًا جدًّا، مع هدية قيِّمة. وقد احترم سفير رسول الله وأكرم وِفادَته، وقبلَ رسالته(٤).

الرحمة في شخصية محمد ورسالته

والرحمة كما تجلت في شخصية النبي محمد ﷺ هي التي وصفها القرآن الكريم والتي كانت **سعيًا نبيلاً لرفع العذاب عن كل كائن حي إنسانًا كان أو حيوانًا**. ومعلوم أن مصادر العذاب والألم عديدة، فقد يعذِّب الإنسانُ أخاه

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٣٢١ - ٣٣٠.
(٢) نفسه؛ ١ / ٣٣٣ - ٣٣٨.
(٣) نفسه؛ ٢ / ٦٠٧ - ويوصف المقوقس في بعض المصادر بأنه ملك الإسكندرية.
(٤) ابن كثير؛ البداية والنهاية؛ ٤ / ٢٦٦.

الإنسان دون رحمة أو شفقة، وقد تأتي الآلام من المرض أو العجز أو الفقر أو طغيان الطبيعة في طوفان أو زلزال أو وباء أو قحط.

ولم يقف محمد ﷺ في أية لحظة من حياته الشريفة موقف المتفرج الذي لا يأبه بآلام الآخرين، بل كان يبادر إلى درء الأذى عنهم، وقد أنكر القسوة على الإنسان والحيوان، لأن الحيوان يشعر بالعذاب ويعاني الآلام، وإن كان أكبر احتمالاً لها من الإنسان.

قال ﷺ: "ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء"(١) وقال أيضًا: "إنما يرحم الله من عباده الرحماء". فقساة القلوب الذين يعذبون غيرهم لا يستحقون رحمة الله تعالى، وقال عليه الصلاة والسلام: "من لا يرحم لا يرحمه الله"(٢) وشَرَّع لأمته المسلمة أن: "من ضرب غلامًا له حدًّا لم يأته، أو لطمه، فكفارته أن يعتقه"(٣).

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: "لعن الله من مثَّلَ بالحيوان"(٤) وكان ذلك من ممارسات الجاهليين البليدة، وأوجب عليه الصلاة والسلام على المسلمين الرحمة عند ذبح الحيوان، فقال: "وإذا قتلتم – الحيوان في الصيد – فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحُد أحدُكم شفرته وليرح ذبيحته"(٥) وقال أيضًا: "لعن الله كل مَن يتخذ شيئًا فيه روح غرضًا"(٦) ومن الجلي أنَّ الغرض من هذه التعاليم هو تجنيب الحيوان الألم، وذلك يحدث بسبب السلاح المثلوم، أو بسبب الإهمال في الذبح بحيث يعاني الحيوان أو الطير مدة طويلة من الآلام.

---

(١) رواه الطبراني؛ ورجاله رجال الصحيح.
(٢) البخاري؛ الأدب المفرد – باب ٧٧ – ص ١٣٥.
(٣) رواه مسلم من حديث ابن عمر.
(٤) رواه البخاري ومسلم.
(٥) رواه مسلم والترمذي في جامعه.
(٦) مسلم؛ ١٣ / ١٠٨.

وأكثر من هذا أمر الرسول ﷺ بالرحمة بالحية والعقرب والكلب والفأرة، وإن أذن بقتلها إذا وُجِدَت في مساكن الناس [١] أما إذا وُجِدَت في بيئتها الطبيعية في الصحراء حيث لا خطر منها على البشر، فلا يجوز قتلها، كذلك نَهى ﷺ عن حَرق النمل وعن قَتلِ الحيوان عبثًا[٢] .

وروي البخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "عُذِّبت امرأة في هرة، حبستها حتى ماتت جوعًا فدخلت فيها النار؛ يُقال - والله أعلم - لا أنت أطعمتيها ولا سقيتيها حين حبستيها، ولا أنت أرسلتيها فَأَكَلَت من خشاش الأرض"[٣] وجاء رجل ببيضة يمامة فأمره بردها إلى عشها رحمةً بها[٤] .

رحمته بفقراء الأسرى يوم بدر

ولقد آذى المكيون المشركون رسول الله ﷺ أشدَّ الأذى، ثمَّ جيَّشوا له جيشًا ليهاجمه في المدينة في غزوة بدر، وقد هزمهم شر هزيمة وأسر خمسة وسبعين رجلاً، وقتل مثلهم، ثم سمح لهم بفداء أسراهم بأربعة آلاف درهم للرجل، تخفض إلى ألف درهم، بحسب قدرة كل أسير، وتفضل ﷺ بالمنِّ على الفقراء الذين لم يكونوا يملكون شيئًا، منهم: أبو العاص بن الربيع، والمطلب بن حنطب، وصيفي ابن أبي رفاعة، وعمرو بن عبد الله بن عثمان بن أهيب: "كان محتاجًا ذا بنات" . فكان ﷺ مثالاً رفيعًا في العفو والتسامح والرحمة، حتى نظم أحدهم فيه شعراً يثني عليه[٥] وكان فداء بعضهم تعليم أبناء المسلمين الكتابة، وهو حل يسير لمشكلة أليمة ومهينة.

---

(١) رواه الذهبي في كتاب الكبائر؛ ص ٢٠٥ .
(٢) نفسه؛ ص ٢٠٦ .
(٣) البخاري؛ الأدب المفرد؛ باب ١٧٦؛ ص ١٣٨ .
(٤) نفسه؛ باب ١٧٧ - ١٣٩ .
(٥) ابن هشام؛ ١ / ٦٥٩، ٦٦٠ .

وكان ﷺ رحيمًا بالحيوان؛ ومن ذلك أنه قال: " إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في السَّنة فأسرعوا عليها السير..."(١).

ويقول الإمام النووي: "معنى الحديث **الحث على الرفق بالدواب ومراعاة مصلحتها**، فإن سافروا في الخصب قللوا السير وتركوها ترعى في بعض النهار وفي أثناء السير فتأخذ حظها من الأرض بما ترعاه منها، وإذا سافروا في القحط عجلوا السير ليصلوا المقصد وفيها بقية من قوتها..."(٢).

ونهى ﷺ عن وَسْم الحيوان في وَجهه(٣) وهذا النهي يعني الرحمة والرفق بالحيوان واحترام وجهه كأنه شخص! ونهى ﷺ عن لعن الحيوان كما نهى عن لعن الإنسان(٤).

والله تعالى يقول﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] **فكيف كان عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين؟**

لقد عذب الإنسان نفسه في القديم والحديث بالمظالم المريرة التي اقترفتها الأمم والجماعات ضد غيرها، فعرفت البشرية الحروب التي لا تكاد تتوقف حتى تشتعل من جديد، واستباح الإنسان قتل أخيه وجرحه وتعذيبه وأسره ونهب ماله وإذلاله، وكلما تقدم البشر في الحضارة ازدهرت صناعة السلاح، حتى عُرفت الأسلحة النووية، واستعملت في اليابان في الحرب العالمية الثانية، دون أي مسوغات عسكرية، فأزالت مدينتي هيروشيما وناجازاكي من الوجود وقتلت مئات الألوف من البشر(٥).

وجاء محمد بالسلام للملايين ممن آمنوا به.

---

(١) مسلم؛ ١٣ / ٦٨.
(٢) مسلم؛ الشرح - ١٣ / ٦٩.
(٣) نفسه؛ ١٤ / ٩٨.
(٤) نفسه؛ ١٦ / ١٤٧.
(٥) أبو الحسن الندوي؛ السيرة النبوية؛ ط ٥ ، ص ٤١٥.

وجاء محمد ﷺ بتحريم الخمر، ونجح في إقناع الأغلبية العظمى من أتباعه بالتوبة عنه، على الرغم من إدمانهم الشهير لمعاقرة الخمور قبل بعثته، وتلك معجزة من معجزات محمد ﷺ، أنقذ بها الملايين، بل المليارات، من أبناء أمته في القديم والحديث، من عذاب الخمر، وهي أم الخبائث، وأشدها فتكًا بالأبدان والعقول والأرواح، وحتى اليوم، لم يعرف الخمور من المسلمين المعاصرين إلا من احتك بالغربيين وتابعهم.

وكما هو معلوم، معظم الغربيين يتعذبون بسبب معاقرة الخمر، وهذا لا يحتاج إلى براهين لأنه واقع ملموس ومشهود، وتعتبر معاقرة الخمر من أخطر المشكلات التي يواجهها الغربيون،(١) وقد انتشرت العيادات المتخصصة في مساعدة المدمنين على الإقلاع عن الخمر، وثبت للناس أن ذلك صَعْبٌ جدًّا.

وظل المسلمون الغربيون في مأمن من ذلك العذاب الأليم.

ولأن الخمر في متناول الجميع في بيوت الغربيين، فقد امتدت أيدي الأطفال إليها، وترددت أسماء أولاد الرؤساء ضمن قوائم المتعاطين والمدمنين، وقد وجد ابن بلير رئيس وزراء بريطانيا السابق مطرحًا على الرصيف في حالة سُكر شديد!

وقد عثرت السلطات على "جينا بوش" ابنة الرئيس "جورج بوش" في حالة سكْر في إحدى حانات واشنطن سنة ٢٠٠١، ولم تكن قد بلغت سن ٢١ سنة ليسمح لها بتناول الخمور، وقدمت أختها "نويل" وصفة طبية مُزورة لتحصل على حبوب "زاناكس" المخدرة، وقد عوقبت على ذلك بالسجن يوم ٢٠٠٢/٧/٧ لمدة ٧٢ ساعة.

وجاء في دراسة أجراها المعهد الملكي للأطباء النفسيين سنة ١٩٨٦ في لندن عن

---

(1) Toynbee; Civilization on Trial; London, 1957, pp.205-299.

الخمر وآثارها المهلكة، أنها أكثر ضرراً من الهيروين والكوكايين وكافة أنواع المخدرات، لأنها تسبب وفيات أكثر ومعاناة أشد وضرراً أبلغ، وأظهرت دراسة أجرتها وزارة العدل الأمريكية سنة ١٩٩٩م أن إدمان الخمر والمخدرات هو سبب اكتظاظ السجون الأمريكية بالنزلاء، لأن أكثر من نصف المسجونين اعترفوا بأنهم كانوا في حالة سكر عندما ارتكبوا جرائمهم، ونشرت دراسات عديدة في الدول الغربية أجرتها هيئات علمية عريقة تؤكد أن الخمر خطر عظيم، أو كما يعبر النبي ﷺ، أنها أخبث الخبائث، أو كما يقول رب العالمين: ﴿**إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [المائدة: ٩٠] وقد أفلح الذين أطاعوا نبيهم وكتابهم ونعموا بالسعادة ونجوا من الآلام والعذابات التي يجلبها الخمر لشاربيها، وذَاقَ العصاةُ الذين أدمنوها صنوفًا من العذاب والألم.

وأحسب أن هذا يكفي لبيان كيف كان محمد رحمة للعالمين، إذا أَصْغَوْا إلى حكمته واستجابوا لدعوته. (ولولا محدودية البحث لأضفت ضعف ما قدمتُ من بيانات تبرهن على أنه ﷺ أُرسل رحمة للعالمين).

وكان من العسير على المسلمين الجدد الذين كانوا يعاقرون الخمر أن يقلعوا عنها مرة واحدة، وتجلت الحكمة في دعوة محمد ﷺ في اصطناع التدرج لبلوغ الغاية العظيمة، فبدا التحريم أولاً للسكر في أثناء الصلاة، فقال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...**﴾ [النساء: ٤٣].

وجاهد المجتمع المسلم كله للبراءة من الخمر وما تجلبه من شرور، وكان ذلك الجهاد عسيراً جداً، لأنه جهاد ضد الذات، لا ضد عدو خارجي، لكن الإيمان الديني والغاية النبيلة من وراء التوبة، ووضع حد صارم للآلام والعذابات التي كانت تفتك بالمدمنين، ووصف القرآن لها بأنه رجس من عمل الشيطان، كل ذلك يسَّر للأمة تحقيق تلك النقلة الهائلة إلى مجتمع نظيف من الخمور، ولنتذكر أن الأمة الأمريكيةُ أرادت أن تحقق تلك النقلة فلم تقدر، وقد حرمت الخمور وَوَضَعَتْ نص التحريم في صلب

الدستور الأمريكي، لكنها عادت وعدَّلت الدستور ليبيح تعاطي الخمر، وقد فعلت ذلك لأن صناعة الخمور تحولت في فترة التحريم إلى صناعة سرِّية، لا تراقبها الإدارات الرسمية، وكانت أضرار التحريم بسبب ذلك أكبر من الإباحة.

ولا تزال البراءة من الخمر أمنية عزيزة للأطباء والمصلحين والحكماء الذين يعرفون أضرارها، لكن الغربيين أخفقوا في محاربتها، ثم أضيفت إليها المخدرات من كل صنف، ووقفت الحكومات عاجزة عن المقاومة!

وسرُّ نجاح محمد ﷺ أنه استند إلى دين وإلى عقيدة، في حين أخفق الغرب لأن الثقافة العلمانية السائدة في بلاده نبذت الدين، وتقبلت تعاطي الخمور على أنه سلوك حضاري سليم، فأوغل الناس في تعاطيها حتى تضخمت المشكلة وعجز الجميع عن حلها![1].

رحمته بالأطفال والخدم

وعن أبي هريرة قال " قَبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع ابن حابس التميمي جالسًا فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: "من لا يرحم لا يُرحم"[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان فما نقبلهم! فقال النبي ﷺ: "أوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة"[3].

---

(١) راجع المسألة بتوسع في كتابي؛ البديل الأمريكي للإسلام؛ نشر دار التحرير؛ سنة ٢٠٠٤ - المبحث ٨.

(٢) فتح الباري؛ كتاب الأدب - باب ١٨ رقم ٥٩٩٧ - باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته - ١٠ / ٤٢٦.

(٣) نفسه؛ رقم ٥٩٩٨.

وعن عائشة أنه ﷺ "وضع صبيًّا في حجره يحنكه فبال عليه، فدعا بماء فأتبعه"(١).

ويقول أنس رضى الله عنه: "كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويشيِّع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار، وكان يوم قريظة والنضير على حمار، ويوم خيبر على حمار مخطوم برسنٍ من ليف، وتحته إكاف من ليف"(٢) وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ: "كان يعلف البعير، ويقمُّ البيت، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويحلب الشاة، ويأكل مع الخادم، ويطحن معه إذا أعيا، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله، وكان يصافح الغني والفقير، ويسلم مبتدئًا، ولا يحتقر ما دعي إليه، ولو إلى حشف من تمر..."(٣).

قصة بُريرة

ومن الأدلة على رحمته وعطفه ورقته شفاعته عند جارية تُدعى "بُريرة" كي تراجع زوجها، قال لها ﷺ: "لَوْ رَاجَعْتِه؟" فقالت: أتأمرني؟ قال: "لا، إنما أنا شافع". فقالت "لا حاجة لي فيه.(٤) فقد كان عليه الصلاة والسلام آسفًا لما كان يعانيه الزوج المسكين ورقَّ له قلبه الشريف، لكنه لم يكن ليقسر المرأة على الحياة مع زوج لا ترضاه ولا تحبه.

وقال ﷺ: "اللهم إني اتخذت عندك عهداً لن تَخْلُفَنِيه، فأيما مؤمن سَبَبْته أو جلدتُه فاجعل ذلك كفارة له يوم القيامة"(٥).

ومن رحمته ورفقه وعطفه على الرقيق، شرَّع للتخفيف عنهم وقال لأتباعه

---

(١) فتح الباري؛ كتاب الأدب؛ رقم ٦٠٠٢ - باب ٢١ وضع الصبي في الحجر؛ ١٠ / ٤٣٣.
(٢) رواه ابن ماجه.
(٣) الرسالة القشيرية؛ ١ / ٤٣١.
(٤) ابن القيم؛ زاد المعاد، ٤ / ٣٥.
(٥) فتح الباري؛ رقم ٦٣٦١ - باب ٣٤ - ١١ / ١٧١.

المؤمنين: "لا يقولَنَّ أحدُكم: عبدي و أَمَتي! كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل (أحدكم): غلامي وجاريتي وفَتَاي وفتاتي"(١).

رحمته بالأطفال

قال أبو قتادة: خرج علينا النبي ﷺ وأُمامة بنت أبي العاص (بنت زينب بنت النبي) على عاتقه، فصلى، فإذا ركع وَضَعَها، وإذا رفع رفعها"(٢).

ونهى ﷺ عن تعذيب الإنسان لأخيه الإنسان، وتوعَّد الذين يقترفون التعذيب فقال: "إن الله يعذب الذين يعذِّبون الناس في الدنيا"(٣).

ونهى النبي ﷺ عن تقنيط الناس من رحمة الله، وقد علم عليه الصلاة والسلام أن رجلاً قال: "والله لا يغفر الله لفلان!" وقال الله تعالى: "مَنْ ذا الذي يتألى (يحلف) عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ فإني قد غفرت لفلان وأحبطتُ عملك، أو كما قال"(٤). وقال تعالى للمسرفين ﴿**لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ [الزمر: ٥٣].

محمد: منقذ الإنسانية

وبسبب هذه الأخلاقيات السامية أعجب به كثيراً جورج برنارد شو George= Bernard Show وقال: "إنني أقدِّر دين محمد تقديراً رفيعًا بسبب حيويته المدهشة، إنه الدين الوحيد الذي يظهر لي وقد امتلك القدرة لمواجهة الأشكال المتغيرة للوجود، والتي تجعله جذابًا لكل عصر، ولقد درست حياة ذلك الرجل المدهش، **وفي اعتقادي بغض النظر عن كوني رافضًا للمسيحية أنه يجب أن يسمَّى منقذ الإنسانية The Saviour of Humanity**. وأعتقد أنه لو أن رجلاً مثله قد صار الحاكم المطلق للعالم الحديث، فإنه سوف ينجح في حل مشكلاته بطريقة تحقق له

---

(١) مسلم؛ ١٥ / ٥ - ٦.
(٢) فتح الباري: رقم ٥٩٩٦ - ١٠ / ٤٢٦.
(٣) مسلم؛ ١٦ / ١٦٧.
(٤) نفسه؛ ١٦ / ١٧٤.

السلام والسعادة التي يتوق إليهما: وأنا أتنبأ بأن دين محمد سيكون مقبولاً في أوروبا في المستقبل كما أنه بدأ يُقبل في أوروبا اليوم"(١).

والإحصاءات تشير إلى تحقق نبوءته، وفي الوقت نفسه تثير القلق لدى عدد من الدوائر الغربية!

وتبرز أخلاقيات الرحمة الحقة والتسامح العظيم في المواقف التي يحكم فيها النبي ﷺ على أعدائه، المهزومين الذين لا يملكون سوى الاستسلام الذليل لحكمه. فتكون الرحمة، ويكون التسامح من القوى القادر على الضعيف المستسلم آية من آيات الأخلاق النبوية الكريمة.

فهؤلاء بنو قريظة القبيلة اليهودية الكبيرة تدخل في عهد وتحالف وسلام مع النبي ﷺ، ثم تدور الأيام ويأتي المشركون القرشيون مع أحلاف لهم من غطفان لغزو المدينة المنورة واستئصال محمد وأتباعه منها، وتحاصر المدينة، وتبحث عن طريقة لعبور الخندق الذي حفره المسلمون لحمايتها، فلا تفلح في شيء، ويذهب زعيم يهود بني النضير حيي بن أخطب إلى زعيم بني قريظة كعب بن أسد يغريه بخيانة العهد ونقضه والانضمام إلى المشركين ضد محمد والمسلمين، وفتح الطريق إلى قلب المدينة عبر مساكن قريظة، ويرسل النبي ﷺ سعد بن عبادة وسعد بن معاذ إلى كعب ليتأكدا من موقفه، فيقابلهما بالإعلان الحاسم بنقضه للعهد.

كانت تلك كارثة عسكرية للمسلمين، لكن الله سلَّم، وانسحب المشركون خائبين راجعين إلى ديارهم، فماذا يفعل محمد؟ هل يسكت على خيانة العهد وتعريض المسلمين لنكبة ساحقة؟ هل يترك قريظة الخائنة شوكة في خاصرة المدينة؟ أم ينزع تلك الشوكة لتأمين عاصمة الدولة المسلمة الناشئة؟

---

(1) Khurshid Ahmad; The Genuine Islam; Singapore,vol. 1. No.8, 1936. Islam Basic Principles; p.11

لقد سارع النبي ﷺ إلى قريظة وحاصرهم حتى نزلوا على حكمه، وقد عهد إلى سعد بن معاذ ليحكم فيهم؛ وقد التزم بحكم التوراة في مثلهم، وهو: القتل للمقاتلين وسبْي النساء والولدان (١).

وهذا هو الحدث الذي يُستخدم عادة لتصوير النبي ﷺ بصورة الرجل القاسي الذي لا يعرف الرحمة، وتلك صورة زائفة لا مسوغ لها في شئون الخيانات الحربية الخطيرة، وضرورات الأمن لأمة صغيرة تهددها الأخطار من كل جهة، وحكم سعد في قريظة هو حكم التوراة، كتاب اليهود المقدس، ولو أن المشركين هزموا المسلمين في تلك الغزوة لطبقوا حكم التوراة نفسه.

وفي غزوة بني المصطلق، وكان رسول الله ﷺ على رأس الجيش، وكان زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول ضمن الناس، وقد تفوه بكلام مهين على رسول الله، ومن وراء ظهره، فقال ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] وبلغت النبي ﷺ فغضب لذلك، وجاء إليه عبد الله ابن عبد الله بن أُبي، بعد أن علم بمقالة أبيه، وقال للنبي: أنا أقتله يا رسول الله إن كنت قاتله! فقال النبي ﷺ: "بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا"(٢).

فهذه هي أخلاقيات النبوية السامية إزاء الاعتداءات والإهانات، أخلاقيات التسامح والعفو والرحمة، وقد قدر النبي للابن حرصه على طاعته و غيرته على شخصيته وعرضه قتل أبيه، وقوله: أنت الأعز وهو الأذل يا رسول الله! فكان عفو النبي بالابن أكثر مما هو رحمة بالوالد.

ويوم مات عبد الله بن أبي بن سلول صلى عليه رسول الله ﷺ، وهكذا رحمه بعد مماته كما رحمه في حياته.

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٢٢٢، ٢٤٠.
(٢) سيرة ابن هشام ؛ ٢ / ٢٩٣ .

وقصة يهود بني نضير قصة جريمة كبرى، فقد خرج النبي ﷺ إلى ديارهم يستعينهم في دية قتل بني عامر، وهم يومئذ حلفاؤه، فتظاهروا بالموافقة، ولكنهم دبروا لقتله! وتكفل عمرو بن جحاش بن كعب،وهو أحدهم، بإلقاء حجر على رأس النبي وهو جالس إلى جوار بيت من بيوتهم، لكن الله تعالى بعث مَنْ أخبر النبي بالمؤامرة، فترك مكانه، ورجع إلى المدينة(١).

فماذا يصنع النبي بحلفاء متآمرين بقتله؟

لقد حاصرهم في ديارهم حتى نزلوا على حكمه، ومع ذلك لم يقتل أي واحد منهم، لا من زعمائهم، ولا الذي تكفل بإلقاء الصخرة على رأسه ﷺ.

وأثبتت المؤامرة الشنيعة لقتل النبي ﷺ أن هؤلاء الناس لا أمان لهم ولا عهد؛ وأن أمن الدولة الإسلامية الناشئة لا يتحقق مع وجودهم في قلب عاصمتها، ومن ثم قرر النبي ﷺ إجلاءهم عن ديارهم، وترك أموالهم لهم. وأسلم رجلان فتُركا في ديارهما، وهكذا رحمهم النبي مرة حين امتنع عن قتلهم، ومرة حين تركهم يجلون عن المدينة وهم يحملون أموالهم معهم، وكان قتلهم هو العقوبة العادلة للغدر بالحليف ونقض عهده والتآمر لقتل النبي ﷺ. ولا مجال للقول إن إجلاءهم عن ديارهم عقوبة قاسية، لأن أمن المدينة المنورة – عاصمة الدولة المسلمة الناشئة – لم يكن ليستقر في وجودهم كشوكة في خاصرتها، ولا يُتصور عقوبة أخف من ذلك، وتلك هي الرحمة من جانب القوي المنتصر القادر على كل عقوبة أخرى، ولو كان المنتصر قائداً عادياً لأبادهم، أو على الأقل: لَقَتَلَ المقاتلة وسبى النساء والذراري، وسلب أموالهم، فلا قتل ولا سبى ولا سلب للأموال، بل مجرد الجلاء عن الديار، فهل فوق هذا رحمة وتسامح مع عدو غادر متآمر لم يعرف للعهد حُرمة؟

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ ٢ / ١٩٠

ولما شرع يهود خيبر في التآمر ضد الدولة المسلمة الناشئة غزاها المسلمون، وانهزمت خيبر، ومن رحمته ﷺ أن تركهم يزرعون أراضيهم : "ولهم شطر ما يخرج منها"(١) وهذه هي قواعد المزارعة بين المسلمين أنفسهم، وهي القواعد التي تطبق حتى اليوم في العالم الإسلامي بين المسلمين، لكن ملكية الأرض آلت للفاتحين، وهي أهون النتائج للحرب في ذلك الزمان.

وقد دَسَّتْ امرأة يهودية لرسول الله ﷺ سمًّا في لحم شاة لتقتله انتقاماً لقتلى اليهود، ولكنه ﷺ لم يسغْه، ولفظه، ومات رجل أكل منه مسموماً، واعترفت المرأة بجريمتها، وكان جزاؤها القتل شرعاً،ولكنه عَفَا عنها، فكان ذلك مثلاً أعلى في التسامح والرحمة.

ويوم الحديبية بعثت قريش ٤٠ رجلاً، ليأسروا بعض جنود النبي ﷺ ، وقد : "رَمَوا في عسكر الرسول ﷺ الحجارة والنبل"(٢) وذلك عدوان صريح وخطير. لكن جنود النبي استطاعوا أن يأسروا المعتدين، وكان من حقه أن يطلب فدية لإطلاق سراحهم، لكنه لم يطلب شيئاً، فعفا عنهم وخَلَّى سبيلهم.

وكان ذلك مثالاً رفيعاً للتسامح والرحمة والعفو عند المقدرة.

وفي الطريق إلى مكة لفتحها حمل الراية سعد بن معاذ، ومرَّ بأبي سفيان ابن حرب، فقال سعد اليوم يوم الملحمة! واليوم تستحل الحرمة! (يعني الكعبة) فقال النبي ﷺ : "**بل هذا يوم تعظم فيه الكعبة**". وأمر بأخذ الراية من سعد وإعطائها لابنه كتأديب له(٣) .

وكان عقيل بن أبي طالب قد استولى على دار رسول الله بعد الهجرة؛ ثم

---

(١) فتح الباري؛ كتاب المغازي؛ باب ٤٠ ؛ رقم ٤٢٤٨ ؛ ص ٤٩٦ .
(٢) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٣١٤ .
(٣) ابن كثير؛ البداية والنهاية؛ ٤ / ٢٨٨ .

باعـهـا، ولذلك سُـئل رسـول الله وهو في الطريق إلى مكة أين تنزل يا رسـول الله؟ فقال: "وهل ترك لنا عقيل من منزل؟" ونزل في خيمة في شعب أبي طالب، وكان من حـقـه أن يطرد السكان الذين اشـتـروا داره، وأن ينزل بهـا ولكنه لـم يفكر في ذلك، وليس بوسعنا أن نفـهـم ذلك السلوك السـامي الكريم: وهل هو رحـمـة بالسكان الذين اشتروا الدار، أم هو احترام لعقيل ابن عمه وأمل في إسلامه؟ ولو كان الفاتح العظيم رجلاً عاديًا لأمر جنوده بإخراج السكان عنوة من الدار، لكي يعيش فيها، وكان ذلك حـقـه الذي لا ينازعـه فـيـه أحـد، **لكن أخـلاقيـات النبـوة تأبى إلا أن تظهـر في كل مناسبة واضحة جلية.**

ودخل الفاتح الكريم مكة وهو راكع على ناقته، وحين اجتمع الناس حول الكعبة، وحطم المسلمـون أصنامـهـم، قـال لهـم النبي: "**مـا ترَون أني فـاعل بكـم؟**" **قـالوا أخ كـريم وابن أخ كـريم، فـقـال: "اذهبـوا فـأنتـم الطلَقـاء!"** وأولئك كانوا هـم الذين آذوه وقتلوا بعض أتباعه، واضطروهم إلى ترك ديارهم وأموالهم والهجرة إلى المدينة المنورة. وكان المتوقع أن يستبيح النبي دماءهم وأموالهم، وأن يخرجهم من مكة كما أخرجوه، وأن يعذبهم كما عذبوه هو وأتباعه، **لكن الأخلاق النبوية السامية التزمت بالعفو والرحمة والتسامح النبيل، فكان ذلك الموقف الرائع الفريد.**

فقط بضعة نفر من المجرمين العتاة الذين حاربوا المسلمين وقاتلوهم واعتدوا على شخص النبي وأهانوه، كـمـا اعتـدوا على فاطمة وأم كلثوم، هم الذين أمرَ بقَتلهم، ولم ينفذ القتل إلا في قلة منهم نظرا لهروب بعضهم، ثم عادوا إلى مكة فعفا عنهم!

وبعـد أن هزمت هوازن، وأُسِر من نسـائهـا وذراريهـا سـتـة آلاف نفس وأعـداد كبيرة من الإبل والشاة، جاء زعـماؤها إلى النبي ﷺ يرجونه أن يُعيد إليهم نساءهم وذراريهم ففعل، رحـمـة بهم، وأبى بعض المسلمين أن يُعيدوا نصيبهم من السَّبْي، فوعـدهم النبي ﷺ بثواب الله، فرضوا وأعادوه، وهوازن هذه هي التي كـانـت على

وشك أن تهزم الجيش النبوي وتفتك بالمسلمين، والمسكنة التي أظهروها تُخفي وراءها عداءً مريراً للمسلمين!

وكانت ثقيف قد صمدت لحصار المسلمين لها، وأمطرتهم بالسهام والنبل من وراء أسوار قلعتهم، وأوقعت في المسلمين إصابات عديدة، وأراد النبي ﷺ أن يضطرهم إلى الخروج ومواجهة المسلمين، فأمر بقطع أعنابهم! وعندئذ **توسلوا إليه أن يدعها "لله والرحم"، فكف عنهم شفقة بهم، لأن الأعناب كانت مصدر رزقهم الأساسي، وتعويضها يحتاج إلى سنوات**(١).

وعفا النبي ﷺ عن العبيد الذين طاردوه وأمطروه بالحصى والحجارة حين قدم لدعوة ثقيف إلى الإسلام أول مرة، وطلب أحد المسلمين من النبي أن يدعو على ثقيف، فقال عليه السلام: "اللهم اهْدِ ثقيفًا وأتِ بهم"(٢) وقد تحقق ذلك بفضل الله، وأتوه مسلمين.

وكان عليه السلام في كل غزواته ينهى المسلمين عن قتل النساء والذراري والأجراء الذين لم يكونوا من المقاتلين، التزامًا بقول الله تعالى ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [البقرة: ١٩٠] ففي الإسلام قواعد شرعية تمنع الحرب من أن تنقلب إلى مجازر دموية تأتي على الأخضر واليابس، كما فعل الصليبيون حين فتحوا القدس وقتلوا كل من كان فيها من المسلمين، الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، المرضى والأصحاء، حسب وصف المؤرخ المسيحي "وليم".

* * *

(١) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٤٨١.
(٢) نفسه؛ ص ٤٨٨.